تقـــــديم

كان الكشف عن حجر رشيد عام ١٧٩٩على يد الحملة الفرنسية في مدينة رشيد وفك رموز الكتابة المصرية القديمة على يد العالم الفرنسي الامبليون عام ١٨٢٢ بمثابة الشرارة التي انطلق بعدها علم المصريات –Egyp tology المختص بدراسة التاريخ والآثار واللغة المصرية القديمة، والذي أصبح يدرس في عدد كثير من جامعات العالم ، وصارت هناك مدارس عالمية تهتم به وتبرع فيه ، مما يعد تعبيرًا عن البحث في أصول الريادة الحضارية التي نبتت في أرض مصر وفضلها الحضاري الكبير على بقية الحضارات الإنسانية حتى يومنا هذا. ومن تلك المدارس العالمية المدرسة الروسية التي قدمت عددًا وفيرًا من روادها القدامى والمحدثين أبرزهم فلاديمير جولينيشيف.

وتعد العالمة الروسية اليانورا ي. كورميشيفا من رواد الجيل الروسي المعاصر في علم المصريات والتي أثرته بمؤلفاتها وبحوثها القيمة وكذلك بنشاطها المحموم في التنقيب عن الآثار المصرية لاسيما منطقة آثار الهرم حيث تم الكشف مؤخرًا عن عدد من المقابر المهمة التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد كمقبرة كاهن الملك خفرع وكبير الحلاقين بالقصر الملكي، علاوة على مكانتها الأكاديمية المتميزة بصفتها مديرة مركز جولينيشيف الدولي للمصريات بروسيا. وهذا الكتاب هو من بين المؤلفات العلمية النفيسة لمؤلفته والذي قدمته ليس فقط لطلابها بالجامعات الروسية وإنما أيضًا لمحبي الحضارة المصرية بالعالم حتى ينهلوا منه عظمة تاريخنا وعراقة حضارته بصورة مبسطة ومعلومات محددة ودقيقة لايشوبها ظل من غموض أو الإسراف في الإطالة والملل.

وتؤكد المؤلفة في كتابها على أن قدماء المصريين هم أول من أنشأ التاريخ والحضارة الإنسانية وارتقوا بهما حتى أخذتها منهم الأمم والشعوب القديمة التي تعلمت الكثير من حكمة حكمائها ونبل ملوكها وثقافة مفكريها وعلم علمائها في مجالات العلوم والفنون والآداب. وتتجلى عظمة المصريين القدماء في أنهم أرسوا قواعد تاريخهم المجيد وحضارتهم العريقة في وقت لم يكن فيه تاريخ أو حضارة، معتمدين على كدهم وذكائهم وبراعتهم وحرصهم على التميز والتفرد ورغبتهم في بلوغ ذروة الريادة والقدوة لغيرهم. فقد كانوا شعبًا لهم هبات عقلية، وكانوا متوقدي العزيمة واليقظة، بينما كانت الأمم الأخرى ما تزال في سباتها.

وساقت المؤلفة عدة شواهد من جوانب مختلفة لمدى عراقة المصريين القدماء وعظمة تاريخهم وحضارتهم باعتبارهم أول من أسسوا دولة مستقرة في التاريخ والتي استمرت طوال ثلاثة آلاف سنة، في حين كانت تعيش الأمم الأخرى في دويلات وانقسامات وتناحر، ونجم عن ذلك أن عاش المصريون في دولتهم مطمئنين وسالمين وارتبطوا بها ارتباطًا كبيرًا لدرجة أنه لم يكن يدور بخلد أحدهم أن يعيش خارجها أو أن يدفن في غير ترابها الطاهر. ووفرت لهم نعمة الاستقرار والاطمئنان أن برعوا في إنجازاتهم الحضارية ورسخت في نفوسهم سمو ورقي القيم الإنسانية. وكان الجالس على عرشها من أسرار وحدتها وقوتها إذا كان يمثل الانتخاب والإرادة الإلهية ليحكم المصريين و يحافظ على أمن ومقدرات بلدهم ويصلح حالهم و يحمي مصالحهم. لذا كان مسئولاً عن حمايتها والدفاع عنها من غارات الطامعين في خيراتها، ويعمل على تدعيم العدالة ونشر لواء الحق بين أفراد شعبه، ويعمل على تأمين راحة ورفاهية شعبه بالاهتمام بمشاريع الري والزراعة.

وتوصل المصريون إلى الكتابة قبل غيرهم وكان ذلك حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م حيث ظهرت الكتابة الهيروغليفية، ثم الهيراطيقية، ثم الديموطيقية، وأخيرًا الخط القبطي. وهناك الأبجدية السينائية المنقوشة على صخور جبل المغارة وسرابيط الخادم بجنوب سيناء التي تأثر بها الفينيقيون وطوروها لتصبح أبجديتهم التي اشتقت منها لاحقًا الأبجديتان اليونانية واللاتينية اللتان جاءت منهما الأبجديات الأوربية الحديثة.

وفي مجال الزراعة والصناعة فقد برع المصريون في إقامة السدود والخزانات الكبيرة واستصلاح الأراضى الزراعية ومعرفة أساليب الزراعة الحديثة والعناية بالنباتات والأشجار بدليل النباتات والأشجار التي أحضرتها الملكة حتشبسوت من بلاد بونت والملك تحوتمس الثالث من بلاد الشام لتزرع في التربة المصرية. وسبق المصريون غيرهم في صناعة الورق من نبات البردي والذي اعتمد عليه العالم القديم طوال العصر الفرعوني وفي العصرين اليوناني والروماني، وظل مستخدمًا حتى القرن العاشر الميلادي حين استعمل الورق المصنوع بالطريقة الصينية.

كما تلقي المؤلفة الضوء على بلوغ المصريين شأنًا عظيمًا في كافة مجالات الأدب سواء الأدب الديني كالأساطير ونشأة الكون أو الأدب القصصي كقصص سنوهي والأخوين والملاح الغريق ورحلة ونامون أو أدب الحكم والأمثال كحكم بتاح حوتب وامنموؤبي وآني. وما يزال الأدب المصرى القديم يتردد صداه بقوة في الأدب العالمي وأسفار التوراة لاسيما

أسفار أيوب والأمثال وترانيم دواود. وأشارت إلى أنهم عاشوا في حماية ضمير يدفعه نحو التمسك بكل المبادئ والقيم والأخلاقيات التي نادت بها الديانات السماوية. فقد أدركوا أهمية بناء مجتمعهم بالضمير والعدل والصدق والأمانة والورع والإيمان وعمل الخير وحسن معاملة الناس وعدم الاعتداء على الآخرين. وتتجسد كل هذه القيم والمثل العليا في اعترافهم الإنكاري بكتاب الموتى عندما يحاسبون في قاعة العدل على أعمالهم وتوزن حسناتهم وسيئاتهم حيث كانوا ينكرون اقترافهم الآثام والذنوب التي تتنافى مع حسن الفطرة والنفس البشرية.

وتطرقت المؤلفة إلى تفوق المصريين على أنفسهم في مجال العلوم حيث كان من بينهم أطباء متخصصين في العيون وامراض الباطنة والجراحة، وذاعت شهرة الأطباء المصريين داخل البلاد وخارجها طوال الحضارة المصرية القديمة وقدموا للعالم خبراتهم وتجاربهم في البرديات الطبية كبردية ايبرس وهرست. وتوصل المصريون قبل غيرهم إلى التقويم إذ كان رأس السنة المصرية يوافق بدء الفيضان الذي يوافق ظهور نجم الشعرى اليمانية، وقسموا السنة اثنى عشر شهرًا، وثلاثة فصول وضم كل فصل أربعة شهور ليصبح عدد أيام السنة ٣٦٠ يومًا تضاف إليها خمسة أيام. وأول من اخترع المزولة التي تحدد ساعات النهار والساعة المائية التي تحدد ساعات الليل كان هم المصريون. كما يرجع الفضل إليهم في اختراع الأعداد ووحدات المقاييس والأوزان والأحجام والمسطحات وإجراء المسائل الحسابية واستعملوا في عملياتهم الحسابية الجمع والطرح والقسمة والضرب وكذلك حساب الكسور.

هذا وقد نجح المترجم في ترجمته المتقنة ، وبلاغة أسلوبه التي تجذب القارئ بجماله ومرونته ، وتقصيه الدقة بالرغم من صعوبة المادة العلمية ومصطلحاتها المعقدة. ويثري المترجم المكتبة العربية بترجمته لهذا الكتاب الذي سوف يستفيد منه دارسوا ومحبوا الحضارة المصرية في مصر وخارجها. والكتاب ضمن سلسلة المصريات التي تنشرها المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم التي يقوم عليها رائدها الدكتور حسين الشافعي انطلاقًا من اعتزازه بالإرث الحضاري العريق لجدوده العظام وعشقه لتراب وطنه وإيمانًا برسالته الحضارية العظيمة نحوها.

دكتور وحيد محمد شعيب

أستاذ الآثار وتاريخ وحضارة مصر بجامعة دمياط

كتاب مصر القديمة

تأليف
إليانورا كورميشيفنا

دامت الحضارة المصرية القديمة لأكثر من ثلاثة آلاف عام حتى القرون الأولى لعصرنا. يسرد هذا الكتاب الإنجازات في مجالات الفن ، و العلوم ، والكتابة، و كذلك العادات و التقاليد في مختلف نواحي الحياة المصرية القديمة. و تكتب المؤلفة بصورة حيوية و جذابة حول الأعمال الأدبية الساحرة و فنون المصريين القدماء ، المحفوظة في الصندوق الذهبي للثقافة العالمية ، ومعتقداتهم التي أثرت بصورة كبيرة على الديانة المسيحية.

يحتوي الكتاب على صور توضيحية. و هو موجه إلى أساتذة وطلاب المعاهد الأدبية ، و كذا لكل أولئك المهتمين بتاريخ الحضارة المصرية القديمة.

الكتاب صدرت طبعته الأولى بالروسية عام ٢٠٠٩ م عن دار نشر «فيس مير» ، و طبعته الثانية عن دار نشر «أنباء ورسيا» عام ٢٠١٧م ، و هي الطبعة التي بين أيديكم ترجمتها.

مقـدمة

احتفل بيوم الفرح ولا تحزن.

لا أحد سيحمل معه أشياءه ،

فمن ذهب إلى هناك لن يعود ثانية.

مقطع من الأغنية المصرية القديمة «العازف على الهارب»

يسدل الليل أستاره على القاهرة....و تشع قمم الأهرامات ، الوحيدة من عجائب الدنيا السبع ، التي بقيت لدينا ، الومضات الأخيرة عندما تميل الشمس للغروب. يرحل شعاع الضوء الأخير مع ذهاب أيام التاريخ حيث إنه يُعد حلقة الوصل بين الماضي و الحاضر, وصيحات الأجداد القدامى, الذين شيدوا هذا التراث الخالد, الذي لا يبهرالأجيال الحالية فحسب, بل وتدفعهم كذلك إلى التفكير في ظاهرة العبقرية الأبدية تلك التي تسمى ب «الإنسآنية» .

يُجل الزمن الأهرامات، أبهر هذا القول المأثور العالم كثيرًا, فهيا بنا نعود بالزمن إلى الوراء آلاف السنين ، و نحاول أن نفهم عظمة الروح وعبقرية من بناها. و كذلك نرى العالم المحيط بنا بأعين المصريين القدماء ، و نصل إلى رؤيتهم للعالم ، حينئذٍ من الممكن أن تُبوح لنا الأهرامات ـ رويدًا رويدًا ـ بأسرارها المكنونة.

حافظ القليل من المصريين القدماء على إنجازاتهم بدافع الغيرة ، واحتفظوا بأسرار حضارتهم. فيبدو أن فن التحنيط ، و صناعة ورق البردي ، وتشخيص الأمراض و طرق علاجها ، و المؤلفات الموسيقية ، و المسائل الحسابية, والرسومات, و حسابات الخرائط المعمارية قد توارت جميعها في الماضي مع من أبدعوها.

بعد احتلال مصر من قبل الإسكندر المقدوني، حاول الإغريق انقاذ العصر الذهبي ، للحضارة المصرية من أجل الأجيال القادمة ، الذين سيعتلون عرش مصر فيما بعد. بدأ الكاهن «مانيتون» الذي كان يعيش بالإسكندرية في القرن الثالث ق.م ، بتدوين تاريخ مصر بتكليف من حاكم مصر بطلميوس الثاني. حيث كان في عهدته العديد من المصادر الأصلية ، و كانت تضم مصادر حية لأناس ولدوا على هذه الأرض الساحرة. و لكن الأمر الرئيس هنا أنه عَرِفَ لغة الشعب و استخدمها في الكتابة. فُقِدَ هذا التأريخ المسجل في ثلاثين مجلدًا في أثناء حريق مكتبة الإسكندرية, و وصل إلينا بضعة أجزاء من مؤلف مانيتون في شكل مقتطفات من الأعمال الحديثة.

أنهت أسرة البطالمة ، و هم خلفاء الإسكندر المقدوني, حقبة حكم الفراعنة الأجانب لمصر ، و هم: الليبيون في القرن العاشر ق.م ، و الكوشيون, و الفرس ، و الإغريق في فترة ما. و رغم زوالهم لكنهم أثروا الحضارة المصرية القديمة ، في نهاية المطاف. أسهمت الهيلينية في إحياء تلك الظاهرة التاريخية الرائعة ، التي تركت أثرًا لا ينسى في الثقافة العالمية. انهارت خطط روما لتوحيد روما و مصر تحت حكم واحد بمقتل القيصر. على الرغم من أن الأخيرة لا تزال تواصل الحياة في أعمال الأباطرة الرومان ، فكانت مجرد قبس من إشعاع الحضارة العظيمة .

تسيطر القوة على العقل في بعض الأحيان ، و التاريخ يعرف لمثل هذا الأمر الكثير من الأمثلة. فعلى سبيل المثال سقطت الإمبراطورية الرومانية العظمية, و لكن بعد مرور بضعة قرون ، و تحديدًا في العام ٦٣٩ م ، هزَمت فرقة من العرب بقيادة عمرو بن العاص القوات الرومانية على مشارف هليوبوليس. وخلال عام استسلم حصن بابليون(الذي يقع حاليًا في مصر القديمة)، و هو يُعد المعقل الأخير للدولة المُحتضرة, و بعدها سوف تتم محاصرة الإسكندرية. فقد كانت فرقة صغيرة من العرب المواليين لعمرو بن العاص كافية لتُغير مصير الدولة القديمة و ثقافتها, و ديانتها, و لغتها. و سيتم الاستغناء عن استخدام اللغة المصرية القديمة فيما بعد. و تظهر طبقة سميكة من الرمال, التي تتجمع كل عام نتيجة للعواصف الرملية, فتشكل غطاءً سميكًا

على أسقف المعابد و المقابر ليخفي أسفله ليس فقط روائع الفن المعماري فحسب ، و لكن أيضًا ذكرياتهم المتعلقة بهذا التراث.

سوف تنكب الأجيال المختلفة على محاولة فك رموز الكتابة الهيروغليفية القديمة فيما بعد ، في العام ١٧٩٩م ذاع صيت المهندس العسكري الفرنسي«بوشارد» الذي اكتشف بالقرب من بلدة «رشيد» لوحة من البازلت الأسود. وعرف العلماء, الذين كانوا جزءًا من حملة نابليون الاستعمارية إلى مصر, أهمية حجر رشيد. و هو عبارة عن حجر مكتوب بلغتين, إذا أردنا الدقة بثلاث خطوط ، و هو مرسوم بطلميوس الخامس إلى إبيفانس»، المُترجم إلى اللغة اليونانية القديمة عن اللغة المصرية القديمة, حيث كان منقوشًا على الحجر خطابًا بالخطين الهيروغليفية و الديموطيقية. فقد مهد اسم الملك بطلميوس, المنقوش على الخرطوش بالنص المصري ، الطريق إلى قراءة سبع علامات من هذا الخطاب.

بعد مرور حوالي ربع قرن منذ العثور على حجر رشيد, يعلن العالم الفرنسي العبقري جان فرانسوا شمبليون في السابع و العشرين من سبتمبر ١٨٢٢م في مؤتمر الأكاديمية الفرنسية للمخطوطات و الآداب عن اكتشافهِ و قدم مفتاحاً لقراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية. و قُدر مجهوده في روسيا بصورةٍ كبيرة, حيث كان الاهتمام بعلم المصريات آنذاك في أوجهِ. و خلال عام واحد اُنتخب شمبليون عضوًا شرفيًا في الأكاديمية الروسية للعلوم. ثم بعد ذلك اُعتُرِفَ بفك الكتابة الهيروغليفية في العديد من دول أوروبا. واكتشفت المصريات بعد هذا الأمر ميلادها الثاني و بدأ صوت مصر القديمة يتردد بقوة في أرجاء العالم.

بدأت العلاقات العلمية بين روسيا و فرنسا عقب الاكتشاف العبقري ل«شمبليون» و استمرت تلك العلاقات مُرتبطة باسم عالم المصريات الشهير فلاديمير سيميونافيتش جولينيشف(١٨٥٦-١٩٤٧)، المُقتني للآثار المصرية القديمة. و تعد مجموعتهُ هي الصندوق الذهبي في متحف الإرمتاج و متحف بوشكين للفنون الجميلة. و أسس ف.س.جولينيشف مركزًا للمصريات في

باريس و كذلك قسم المصريات في جامعة القاهرة الذي ما يزال قائمًا حتى الآن. و يعد اسمه واحدًا من أوائل الأسماء بين علماء الكلاسيكيات في علم المصريات.

من المستحيل وصف كل ما منحته الحضارة المصرية القديمة للعالم, وكذلك يستحيل تقييم تراثها الثقافي بالكامل. فيتلامس زمن الحضارة المصرية مع الأبدية. و كلما حاولنا فهمها بصورة أعمق, تظهر أمامنًا أشياءً جديدة تجذب إليها عقول العديد من الأجيال.

أليس من المدهش أنه في زماننا هذا ، و هو عصر التقنية و التطور لا يزال سحر أقدم الحضارات في العالم يجعل قلوبنا تخفق بقوة. كتبَ الموظف المصري القديم بتاح حُتب, الذي قام بجمع أول مجموعة أقوال حكيمة و وضع قواعد على آداب السلوك و فن الحياة الراقية في العالم حوالي عام ٢٤٠٠ ق.م: «ليس من الضروري أبدًا أن تبالغ بمعرفتك, و قدراتِكَ ؛ لأنه لا توجد حدود للفن أو العلم و لا يستطيع أحد أن يبلغ حد الكمال». ربما كان أول شخص في التاريخ يفهم الخصائص الرئيسة للحضارة المصرية القديمة: كلما تعقبتها, تبقى بها ألغاز و أسرار لا حل لها. يؤكد السعي المستديم لبلوغ المعرفة المطلقة ــ و منها الرغبة في المعرفة, و الاهتمام الدائم, و الانبهار بإبداعهم, الذي يتجاوز عُمرهِ سبعة آلاف عام ــ على قيمة تراث مصر القديمة الذي خَلَفتهُ للعالم وهو ما لا يقدر بثمن.